

دلالات اختيار المفردة القرآنية عند الشيخ محمد لخضر الدهمة في تفسيره

"قطوف دانية من سور قرآنية"

The Significance of Quranic Vocabulary in Sheikh Muhammad al-Khadr al-Dahma's Exegesis: "Pleasant Fruits from Quranic Surahs"

فاطمة عويمر

Fatma Aouimer¹جامعة يحيى فارس المدينة (الجزائر)، aouimer.fatma@univ-medea.dz

تاريخ النشر: 2025/11/30

تاريخ القبول: 2025/10/25

تاريخ الاستلام: 2025/07/17

الملخص : للمفردة القرآنية مرونة وانسيابية دلالية لا نجد لها نظيرا في أي سياق لغوي آخر، شعرا كان أو نثرا، لما تتفرد به من خصوصيات وسمات ذاتية؛ من حيث اختيارها إيقاعا وبنية، وحسن تموضعها داخل التركيب، وتألفها مع المفردات القبلية والبعدية، وقد اعتنى الشيخ لخضر الدهمة في تفسيره "قطوف دانية من سور قرآنية" بإبراز واستكناه الأسرار الخفية لمعاني المفردات القرآنية، وجماليات التعبير بها، ونسعى من خلال هذه الورقة البحثية إلى بيان مدى تذوق الشيخ الدهمة للقيم الدلالية والتعبيرية للمفردة القرآنية؛ باعتبارها حجر الأساس في بناء المعنى، والأسرار الدلالية والإيحائية التي استقاها، سواء التي تعلق بانبثاق المفردة دون غيرها، أو التي تعلق بحسن نظمها داخل السياق القرآني، أو تناسبها مع الألفاظ المصاحبة لها، وكذا وقوفه عند بعض النكت التفسيرية.

كلمات مفتاحية: المفردة القرآنية، الاختيار، الأسرار الدلالية، الدهمة، تفسير القرآن.

Abstract

The Quranic word exhibits a semantic flexibility and fluidity unmatched in any other linguistic context, whether poetry or prose, due to its unique features and intrinsic qualities. These include the careful selection of its rhythm and structure, its optimal placement within the syntactic framework, and its harmony with both preceding and succeeding words. In his exegesis "Pleasant Fruits from Quranic Surahs," Sheikh Muhammad al-Khadr al-Dahma devotes attention to uncovering the hidden meanings of Quranic words and exploring the aesthetic qualities of their expression. This study seeks to examine Sheikh al-Dahma's deep appreciation for the semantic and expressive values of Quranic vocabulary, viewing it as the cornerstone in the construction of meaning. The paper investigates the subtle semantic and suggestive layers he uncovered, including his rationale for selecting specific words over others, their organization within the Quranic context, their compatibility with surrounding words, and his focus on certain interpretive nuances.

Keywords: Quranic vocabulary, word selection, semantic secrets, al-Dahma, exegesis.

1. مقدمة:

إنَّ القرآن الكريم كلامُ الله عزَّ وجلَّ، فيه يتجلى سحر العربية وسُمُو ألفاظها، وسلاسة تراكيبها، وجلاء معانيها، وفيه تتجسَّد أرقى أساليب التعبير، التي تأبى أن يكون لها نظير أو شبيه في الفصاحة وحسن البيان، وبه تحدَّى الله فصحاء العرب قائلًا: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]؛ ألفاظُهُ ساداتُ الألفاظ صوتًا وبناءً وبديعَ نظمٍ، وُضِعَت مواضعُها التي لا يليق بها غيرها، لتصورَ لنا مضامين ومعاني رسالة المولى لخلقهِ، ومن هنا كان لتلك الألفاظ قُدسية شكلية ودلالية، فهي مركز الصرح اللغوي، وهي قلبُه النابض بمظاهر الجمال الفني والرقِّي الدلالي.

وتتمتلك المفردة القرآنية قدرة عجيبة على التعبير والإقناع والتأثير، فهي تؤدي وظيفتها الإبلاغية مشحونةً بظلال معنوية ومقاصد إيحائية تتجاوز حدود التعبير العادي إلى التعبير الفني الجمالي، من غير إخلال بالمعنى المقصود؛ فقد تمَّ انتقاؤها بعناية، انتقاءً تظهر فيه الحكمة والدقة الإلهية، ولأنَّ المفردة نواةُ الجملة فإنها تتراصُّ مع باقي المفردات لتشكِّل أئتلافًا عجيب الاتساق، بديع الانسجام، تتولَّد عنه المعاني العالية علوَّ كلام المولى عزَّ وجلَّ. وكباقي المفسرين والمشتغلين بمظاهر الإعجاز القرآني، أولى الشيخ الأخضر الدهمة عناية بالغة بلغة القرآن وتراكيبه وأساليبه النحوية والبلاغية، وشرح دلالات مفرداته، واقتناص جمالياتها واستخلاص أسرارها ومعايير انتقائها وتموضعها داخل السياق، فلم يخفَ عليه -وقد أقدم على التفسير- أنَّ للمفردة القرآنية سماتٍ وخصوصيات دلالية لا توجد في غيرها من مفردات أرقى النصوص فصاحةً وبلاغةً، وأنَّ فهم معاني الألفاظ هو المفتاح لفهم معاني القرآن الكريم، فكان يحيط اللفظ بكلِّ ما يكشف دلالاته الظاهرة والخفية، معتمدا على المعنى المعجمي والصرفي، فإن تضمَّن اللفظ لطيفة دلالية خفيةً، أو قيمة تعبيرية جمالية، تلقَّفها وأبان عنها.

وهذا ما يقودنا إلى الإشكالية التي تتمحور حولها هذه الدراسة، وهي: فيم تجلَّت مظاهر عناية الشيخ الدهمة بالمفردة القرآنية؟ وكيف وقف الشيخ على جماليات المفردة وأسرار انتقائها؟

ولا يخفى على أحدٍ من الدارسين أنَّ المفردة القرآنية وما يُثار حولها، من البحوث التي كثر الحديث فيها، من قبل المفسرين والأصوليين والبلاغيين، غير أنَّ الشيخ لخضر الدهمة الجزائري لم يلق عناية كبيرة من قبل الباحثين، ولهذا جعلنا هدفنا في هذه الورقة البحثية بيانَ منهجه في استخلاص اللطائف والأسرار الدلالية لاختيار مفردة دون أخرى، ولنعرِّف القارئ بشخصية لخضر الدهمة؛ الرجل المعلم الناصح الذي ما زال مغمورا، ونلقي الضوء على تفسيره المانع النافع.

وتبعًا لما يقتضيه موضوع الدراسة ارتأينا أن ننتهج منهجية مقسمة على محورين:

الأول: منهج الشيخ الأخضر الدهمة في تفسيره، وقفنا فيه على المنهج الخارجي أي طريقة تأليف الكتاب، ثم المنهج الداخلي، وخصّصنا الحديث عن المنهج اللغوي الذي يمثل إحدى سمات التفسير. الثاني: أسرار اختيار المفردة القرآنية عند الشيخ؛ وابتدأناه بالحديث عن خصوصية المفردة القرآنية، يليه الدلالات المستقاة من تلك الاختيارات التي وقف عليها في تفسيره.

2. منهج الشيخ الأخضر الدهمة في تفسيره:

1.2 الإطار الخارجي للتفسير:

"قطوف دانية من سور قرآنية" هو تفسير مقسّم على جزئين، ضمّ الجزء الأول سورة الفاتحة و"يس" و"الحجرات" و"الحشر"، وضم الجزء الثاني قصار سور المفصل من سورة "الضحى" إلى "الناس"، وأصل هذا التفسير الدروس التفسيرية الشفوية التي كان الشيخ يلقاها في مساجد غرداية ومتلي، وقد جمعها بطلب من بعض الأساتذة الذين رغبوا في أن تتسع دائرة المستفيدين من تفسير الشيخ، وألاً يقتصر على الحاضرين في الحلقات التفسيرية، فأجاب الشيخ طلبهم، وأخرج لنا هذا التفسير المانع الباذخ بفوائده ولطائفه، وقد نصّ على ذلك في مقدمة تفسيره فقال: «وكنْتُ قبلًا أكتفي بمذكرات وجيزة أدوّن عليها العناصر الرئيسية في الموضوع، لأتوسّع فيها عند الإلقاء، ولكنّ بعض الأساتذة من أبنائي الروحيين ألحوا عليّ في تلخيص هذه الدروس في قراطيس لتكون تفسيراً يانعا ميسراً، يساعد القارئ على التصوّر الصحيح لمعاني الآيات، فأجبتهم لذلك» (الدهمة، 2010، صفحة ج1، ص1).

وقد استهلّ الشيخ تفسيره بمقدمة بيّن فيها طبيعة هذا التفسير، ودواعيه، والفئة التي يخاطبها به، ومنهجه الذي سار عليه، فقال: «أمّا هذا التفسير فهو موجّه لذوي الثقافة العامة، ممّن يمكنهم متابعة البحث والتحقيق، ومسايرة التحرير والتدقيق، وهو لا يختلف عن التفسير المسموع من حيث المنهجية، إنّما يختلف عنه من حيث الاختصار والمستوى اللغوي المرفّع، وتذليل كل سورة بما رأيته جديراً بلفت النظر إليه من معانيها أو مراميها أو أحكامها أو عظائنها... وقد تجنبت فيه التوسّع فيما لا أراه مفيداً للقارئ من أفكار ثانوية، أو روايات متعددة، بينما توسّعت توسّعاً -قد يلفت النظر- فيما فيه تنقيف للعقل، أو اندياح لدائرة الفهم، أو مادة لاستنباط العبر، أو بما له صلة بتفسير الآيات» (الدهمة، 2010، الصفحات ج1، ص2-3)، وهذا النهج الذي نصّ عليه الشيخ في مقدمة تفسيره هو الذي سار عليه في قطوفه الدانية؛ فالكتاب ذو منهج تعليمي مبسّط قريب المأخذ، يسهل فهم معانيه، وقد صيغ بأسلوب شيق بعيد عن الملل الذي قد ينتج عن كثرة الروايات والخلافات، خاصة تلك التي لم تثبت بنص قرآني أو نبوي، والأهم من ذلك -وهو ما استشعرناه ونحن نقرأ التفسير- أنّه يبعث في النفس الرغبة في مواصلة

القراءة حتى نهايته؛ لما يحويه من نفائس ودُرر، خصوصاً تلك المتعلقة بالنكت التفسيرية، وبالآداب والأخلاق والمواعظ الدينية والاجتماعية، وأهم السمات المنهجية التي ميزت هذا التفسير هي:

- السمة البارزة في القطوف الدانية هي التنظيم وحسن التويب والترتيب، والانسيابية في الاسترسال أثناء الشرح، والانضباط في عرض المعلومات اللغوية والدينية والتوعوية، وقد انتهج الشيخ في تنظيمه للمعلومات والمعارف الواردة في تفسيره طريقة المفسرين؛ فهو يفتح السورة بذكر سبب التسمية، وأسباب النزول، وفصل السورة إن ورد في ذلك أحاديث صحيحة ثابتة في الأثر، ثم يعمد إلى بيان مناسبة السورة لما قبلها، ويشعر بعد ذلك في التفسير، متوقفاً عند ما يستدعي الشرح، ويسترعي الاهتمام.

- **يعتمد الشيخ على طريقة السؤال والجواب**، حين يتعلق الأمر ببعض المعاني الخفية، أو النكت التفسيرية، وغايته من ذلك استثارة ذهن القارئ؛ وذلك أن طرح السؤال يستلزم وجود قيمة علمية بالغة الأهمية مترتبة عليه، وهو بذلك يهيئ القارئ للاهتمام بالجواب، ومن تلك الأسئلة ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة:3]، حيث طرح سؤالين هما: «ومن هم القريبون لرحمة الله، المستحقون لها على الدوام؟ وأين تظهر رحمة الله بمخلوقاته؟» (الدهمة، 2010، صفحة ج1، ص28).

- **عدم الخوض في ذكر الخلافات** التي لم ينصَّ عليها القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، وفي ذلك تأكيدٌ لمصادقية وصحة نُقُوله، كما أنَّ ذكر الخلافات والإفاضة فيها مدعاةٌ للإطالة ومخالفةٌ لمنهجه التعليمي الذي نصَّ عليه في مقدمة تفسيره.

- **ذكر بعض الآداب سمةً بارزةً في قطوف الشيخ**، وهي امتدادٌ للمنهج العام الذي خطَّه لكتابه وهو التتوير والتتقيف، ومن تلك الآداب: آداب زيارة المقابر، وقد ذكرها عند تفسير سورة التكاثر (الدهمة، 2010، صفحة ج2، ص182)، وآداب النصح التي ذكرها عند تفسير سورة العصر (الدهمة، 2010، صفحة ج2، ص199).

- **ذكر التنبيهات**: يعرض الشيخ لبعض التنبيهات عقب الانتهاء من تفسير الآية أو السورة، ومدارٌ تنبيهاته حول وجود خطأ في الفهم، أو تصحيح معلومة، أو التعقيب على آية ما، وقد يعقد التنبيه بغية تصحيح عادة من عادات المجتمع الناتجة عن الجهل والخرافات، والمتربِّصين بالدين الراغبين في نشر البدع، وصرف الناس عن كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومن جميل تنبيهاته ما ذكره من قصص خرافية وأقاويل باطلة منسوجة حول ليلة القدر (الدهمة، 2010، الصفحات ج2، ص101-106).

- **التنذيلات** التي يختتم بها بعض السور، ويناقش فيها موضوعاً متعلقاً بالمضمون العام للسورة، بمعنى أنه يستخلص من السورة بعض الدروس التي تُعَدُّ من قبيل النصائح، والفوائد التذكيرية والتوعوية والتتقيفية، ومن

تذييلاته: تذييلٌ على سورة "الضحى" بخصوص النهي عن قهر اليتيم، والعناية به، والتصدُّق على السائل المحروم، وكذا موضوع السائل عن العلم (الدهمة، 2010، الصفحات ج2، ص17-20)، وتذييلٌ على سورة "الشرح" عنوانه "قيمة الوقت" (الدهمة، 2010، الصفحات ج2، ص34-40)، وآخر على سورة "العلق" عن أهمية القراءة والكتابة (الدهمة، 2010، الصفحات ج2، ص83-87)، وغير ذلك من التذييلات التي تصفي على التفسير طابعا تربويا إصلاحيا.

2.2 المنهج اللغوي في تفسير الشيخ الدهمة:

نلمس في "القطوف الدانية" اتجاهين بارزين: أولهما: الاتجاه الإصلاحى التربوي التنقيفي، ويتجسد في القيم الدينية والاجتماعية والسياسية التي بثها الشيخ الدهمة في صفحات تفسيره، بغية نشر الوعي الديني والاجتماعي، ومحاربة البدع والخرافات والخزعبلات التي سرت في شرايين الأمة الجزائرية، وخلفت مظاهر شتى من الانحطاط الفكري والعقدي والاجتماعي، وثانيهما: الاتجاه اللغوي البلاغي، والتفسير اللغوي أحد أجزاء علم التفسير، وهو «بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب ... والمراد ألفاظها وأساليبها التي نزل بها القرآن» (الطيّار، 1422، الصفحات ص38-39)، أي حمل ألفاظ القرآن وأساليبه على ما هو معلوم عند العرب، من غير لبس أو انحراف عن المألوف، ولما كان القرآن كلاما عربيا فصيحا احتيج إلى معرفة لغة العرب من حيث معاني ألفاظها وتنوع أساليبها وتراكيبها ومقاصدها، ليكون ذلك طريقا لفهم النص القرآني «فَمَنْ أَرَادَ تَفْهَمَهُ فَمِنْ جِهَةِ لِسَانِ الْعَرَبِ يُفْهَمُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَطْلُبِ فَهْمِهِ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الْجِهَةِ» (الشاطبي، 2004، صفحة ص255).

والتفسير اللغوي عام في علوم اللغة دون تخصيص، فإن معرفة أساليب العرب ليس وقفا على دلالات الألفاظ المعجمية بمعزل عن سياقها الذي صيغت داخله؛ إذ تتضافر الدلالة المعجمية والدلالة الصرفية المستقاة من بنية اللفظ، والدلالة النحوية، ولطائف البلاغة، وإيقاع الأصوات؛ مشكلة نسيجا دلاليا منتظما يؤدي المقصد تأدية تامة، وقد أحسن الشيخ الدهمة استخدام معاول اللغة من نحو وصرف وبلاغة في اقتناص المعاني، أمّا النحو فمن الأسس التي قام عليه تفسيره، لكن عرض الشيخ للمسائل النحوية جاء على قدر الحاجة؛ من غير إطالة أو خروج عن الضرورة، فقد اكتفى بإعراب ما يلزم إعرابه، وكثيرا ما كان يربط بين النحو والمعنى المترتب عليه، وله وقفات مطوّلة عند معاني الحروف. ومن جميل وقفاته ما نصّ عليه عند إعرابه لمفردات الآية الكريمة: ﴿وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ [يس: 28] قال: «وقوله: "مِنْ بَعْدِهِ" أي من بعد موته ... وقوله عز وجل: "مِنْ جُنْدٍ" أفادت "مِنْ" تأكيد العموم في معنى: "جند"، وهكذا هي إذا وقعت في سياق النفي، والنفي هنا بـ "ما" في "ما أنزلنا"، ولولا قصد التوكيد لانتصب "جند" على أنه مفعول أنزل، وقوله تعالى: "وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ"

اعتراضٌ بين نفي إنزال جنِّدٍ من السماء، وبين إثبات العقوبة، وفائدة الاعتراض الإعلام بأنَّ الله ليس من عادته إنزال الملائكة لإهلاك القوم الظالمين» (الدهمة، 2010، صفحة ج1، ص104).

كما عُنِيَ الشيخ بالقضايا الصرفية، من أصول الألفاظ واشتقاقاتها وأوزانها، رابطاً بين الصيغة ومعناها في أكثر المواضع، إلى جانب عنايته بالعدول الصرفي الذي يخفي وراءه معانٍ تتجاوز حدود التعبير من دون انحراف زمني، وستكون لنا وقفة مع بعض الأمثلة.

وللبلاغة الحظ الوافر من اهتمام الشيخ الدهمة، بشقيها البيان والمعاني، وإن كانت عنايته بعلم المعاني وأسرار النظم القرآني هي الأبرز، فقد شغل التعبير القرآني فكر الشيخ، فكان يتوقف عند بعض التراكيب البديعة ليخرج منها دُرراً ونُكَّتا بلاغية، ودلالات إيحائية، ومن ذلك ما استخلصه من دلالات النظم العجيب في المركب الإضافي "زلزالها"، في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، حيث قال: «وأضيف المصدر "زلزال" إلى ضمير الأرض "ها" لحكم منها:

أ- بيان أنَّ هذا الزلزال مقدَّر وقته في علم الله.

ب- أنَّ هذا الزلزال عظيم يناسب ضخامة الأرض، ويشمل أجزائها، وذلك للإشعار بهوله.» (الدهمة،

2010، صفحة ج2، ص136)

وكان للشيخ وقفات وجولات عديدة مع الأغراض البلاغية للأساليب الإنشائية والخبرية، والمعاني المرتبطة بعوارض الجملة من حذف وتقديم وحمل على المعنى.

أمَّا بخصوص شرح الألفاظ، فقد اعتمد الشيخ طريقتين:

طريقة إيراد المعنى من غير استشهاد بالقرآن أو شعر العرب ونثرها، وهو الغالب عليه، ملتزماً الاختصار والاقتصار على المعنى الراجح دون الخوض في الاختلافات المأثورة عن المفسرين، إلا إذا كانت المعاني المحتملة للفظ متقاربة، ويصلح جميعها لتفسير اللفظ.

والطريقة الثانية إيراد المعنى مع الاستشهاد، والقرآن الكريم رأس شواهد، فقد اعتمد على تفسير القرآن بالقرآن، وكان يستخلص معنى اللفظ من النظائر القرآنية، ويعتمد أحياناً على الآيات المتقاربة الدلالة للربط بين المعاني أو الكشف عن معنى مبهم، وقد يبيِّن المعاني المشتركة في اللفظ انطلاقاً من الآيات التي ورد فيها، إلى جانب اعتماده على الحديث النبوي الشريف، وبعض أقوال الصحابة -رضوان الله عنهم- كعمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وبعض التابعين كالحسن البصري وعمر بن عبد العزيز؛ وهذا ما يجعل "القطوف الدانية" تفسيراً بالنقل أو تفسيراً بالمأثور، وهو أشرف وأعلى درجات التفسير صحة، ويشمل: تفسير القرآن بالقرآن،

و«هو الذي جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته، فما أُجمل في آية فُسِّر في أخرى، كما يشمل القراءات القرآنية فقد تفسَّر القراءة قراءة أخرى، والتفسير الوارد عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- في سنته؛ فكم من آية وردت مجملة ففصلتها السنة، أو جاءت عامة فخصصتها السنة، ويشمل أيضا التفسير الوارد عن الصحابة الذين عاصروا زمن الوحي وشهدوا أسباب النزول، وكذلك تفسيرات التابعين الذين عايشوا الصحابة» (العك، 1406هـ/1986م، صفحة ص111)، إلى جانب استشهاد الشيخ بكلام العرب نظمه ونثره.

وقد كان الشيخ يأخذ عن التفسيرات المشهورة القديمة والحديثة، وأكثر التفسيرات ورودا عنده: تفسير ابن كثير، وتفسير ابن جرير الطبري "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، و"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي، و"مفاتيح الغيب" لفخر الدين الرازي، و"أحكام القرآن" لأبي بكر بن العربي، و"أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" للشنقيطي، و"التحرير والتنوير" للطاهر بن عاشور.

3. أسرار اختيار المفردة القرآنية عند الشيخ الدهمة:

1.3 خصوصيات المفردة القرآنية:

المفردة القرآنية ذات دلالة لا تقبل الاستبدال، وعُرفَ خاص لا يقبل التماثل ولا التشابه، حيكت داخل نسيج لغوي متناهي الإحكام، للتعبير عن أجلِّ المعاني وأرقاها وأصفاها وأبينها، فعلى قدر علو المعنى يكون وهج اللفظ وفخامته وتساميه على باقي الألفاظ خارج النص القرآني، ولأنَّ المفردة وعاء المعنى ومرأته، ومركز بنائه وتكوينه، كان لاختيارها دون سواها أبعاداً دلالية فوقية خفية لا يسير غورها إلا من أوتي ذوقاً وحساً لغوياً متفرداً، ولأنَّ القرآن كلام الله عزَّ وجلَّ اختيرت مفرداته اختياراً مقصوداً، لتدلَّ على أغراضه ومقاصده دلالة تامة من غير نقصان، وتحدث الراغب الأصفهاني عن قيمة المفردة القرآنية وتفردها واحتياج أرباب الفنون لها قائلاً: «فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المُعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللب في كونه من أول المُعاون في بناء ما يريد أن يبينه، وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لبُّ كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفرع حُذِّق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة» (الأصفهاني، 1430هـ/2009م، الصفحات ص54-55).

وقد صبَّ العلماء والدارسون عنايتهم لمعرفة أسرار وخبايا المفردة القرآنية، وما يتعلق بخصوصياتها الشكلية والدلالية، والقضايا اللغوية المتصلة بها؛ الصوتية والصرفية والنحوية، ولطائفها البلاغية وانسجامها المعنوي، فألفوا

في ذلك التصانيف الجليّة، من تفاسير وكتب في الإعجاز القرآني، ودراسات لبعض سور القرآن الكريم، واشتغلوا على أدقّ التفاصيل التي تكشف مكامن المعنى ومواطن الجمال والرفق المحيطة بألفاظ القرآن الكريم، ذلك الجمال اللفظي الدلالي هو امتدادٌ للغاية السامية التي لأجلها نزل القرآن الكريم، وهي هداية الخلق وتقنين حياتهم عبادةً وتعاملاً، فكان الانتقاء مبنياً لا على أسس دلالية لغوية بحتة، وإنما على أسس لغوية بلاغية دينية؛ عقيدةً وتشريعاً وتوجيهاً وتأريخاً وإعجازاً.

إنّ المفردة القرآنية تُصطَفى اصطفاً مقصوداً؛ في ذاتها صوتاً وبنية، وفي غيرها ائتلافاً وانسجاماً، تتساق مع معناها ضمن حدود النسيج اللغوي الذي صُبّت فيه، فكأنّها وباقي المفردات المصاحبة لها سبيكةً واحدة، أو جسدٌ واحد، إذا انتزع منه لفظ أو غُيّر اختلّ توازن الجسد، وخبثَ هالته، وذهب بهاؤه، ويتحدث أحمد حسن الزيات عن خصوصية اللفظ قائلاً: «أمّا خصوصية اللفظ فهي دلالاته التامة على المعنى المراد، ووقوعه الموقف في الموقع المناسب، وآية مطابقتها لمعناه ومبناه أنّك لا تستطيع أن تُبدله ولا أن تنقله، والخصوصية في اللفظ أصلُ الدقة في التعبير، والوضوح في المعنى والصدق في الدلالة؛ لأنّ الكلمة إذا تمكنت في موضعها الأصيل دلّت على المعنى كلّهُ، فإذا حُشِرَت فيه حشراً، أو قُسرَت فيه قسراً، دلّت على بعض المعنى، أو أبانت عن غيره» (الزيات، 1945، صفحة ص82).

ويضيف قائلاً: «وفي اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداعٌ وخلق؛ لأنّ الكلمة ميتة في المعجم، فإذا وصلها الفنان الخالق بأخواتها في التركيب، ووضعها في موضعها الطبيعي من الجملة، دبّت فيها الحياة، وسرت فيها الحرارة وظهر عليها اللون، وتهياً لها البروز» (الزيات، 1945، صفحة ص83)؛ ويستوقفنا في هذا القول أنّ الزيات يعتبر خصوصية اللفظ المتحققة في دقة اختياره عمليةً تنبني على أمرين: "الإبداع"، وهو صفة ناتجة عن براعة المنتقي للفظ، و"الخلق"، وهو عملية إنتاج للمعنى بواسطة اللفظ المنتقى بعناية وبراعة، وبذلك فإنّ اختيار اللفظ هو خلقٌ إبداعي، أو إنتاجٌ مُبدع بارع، والتوصيف الذي أقرّه الزيات يجعل المفردة كأنّها حيّاً ميتاً؛ هي ميتة ما دامت خارج بيئتها اللغوية؛ حتى إذا وُضعت موضعها اللائق بها، بُعثت فيها الروح وارتسمت معالمها، واستقامت معانيها الظاهرة والضمنية.

2.3 دلالات انتقاء المفردة القرآنية في تفسير الشيخ الدهمة:

أدرك الشيخ لخضر الدهمة -كغيره من المفسرين- القيمة الدلالية والتعبيرية لاختيار المفردة القرآنية، وأنّها تُوظفُ توظيفاً خاصاً، يتسم بدقة بنائها ورهافة جرسها الصوتي ضمن حدود تموضعها، وهو ما يُكسبها شحنةً دلاليةً توحى بما لا يمكن لمفردة أخرى أن تتضمنه لو وُضعت مكانها، وما لا يمكن للمفردة ذاتها أن تتضمنه لو أُقيمت

في موضع آخر غير موضعها الذي اختير لها، فالمفردة المنتقاة تُلقَى بظلالها الدلالية حتى تكاد ترى المعنى الخفيّ فيها، ولنتأمل بعض المفردات التي استرعت نظر الشيخ الدهمة، فوقف عند إعجاز انتقائها دون غيرها.

أولاً - علاقة السياق الدلالي للآية باختيار المفردة؛ ومن ذلك التعقيبُ على تسخير الشمس والقمر في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِآيَةٍ مُّسَمًّى﴾ بالإشارة إلى اسمين من أسمائه الحسنى مختارين بعناية مراعاة لما قبلهما، بقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس:38]، وقد نبّه الشيخ على أنّ سرّ تموضع الاسمين في هذا الموضع مردهُ إلى أنّ «العزّة أي القوة والغلبة هي التي تتناسب مع تسخير الشمس والقمر، وإخضاعهما لمشيئة الله تعالى، ولأنّ العلم الإلهي المحيط هو الذي يتناسب مع دقة النظام الكوني البديع» (الدهمة، 2010، صفحة ج1، ص124).

ولنتأمل هذا التوجيه الدلالي العميق من الشيخ في سرّ انتقاء اسم "الرب" جلّ جلاله في قوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:1] دون باقي الأسماء، يقول معللاً هذا الانتقاء: «واختيار اسم "الرب" من أسمائه تعالى يشير إلى التربية الروحية بعد التربية البشرية، فالربُّ جلّ جلاله لطيف بمربوبيه، يعرفهم به ويرشدهم إلى ما يجب إليهم نحوه، ويعلمون ما يستمطرون به رحمته، ويستبعدون نقمته» (الدهمة، 2010، صفحة ج2، ص65)، ويستوقفنا في هذا التوجيه الدلالي حسنُ الربط بين معنى اسم الربّ أي المربّي وبين الأمر بالقراءة؛ فالربُّ الراعي لخلقه، اللطيفُ بهم، المعرّفُ والمرشد إلى ما يكون به مجلباً الخير لهم، وما يكون به مدفعاً الشرّ عنهم، لا يكون منه إلا الأوامر النافعة الهادية، ومن ذاك الأمر بالقراءة، لما فيه من منافع لعقولهم وأرواحهم وأبدانهم.

ونظير هذا الإعجاز الدلالي نجده في انتقاء اسم "الحطمة"، في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطْمَةِ﴾ [الهمزة:4]؛ إذ وردت في سياق يليق بمعنى المبالغة في التحطيم، حين ارتبطت بالنبز وهو خاص بكلّ ما هو مُستحقّر، والمقصود به في الآية "الهمزة اللّمْزة"، فعلى قدر شناعة فعلي الهمز واللمز يكون العقاب، وفي هذا يقول الشيخ: «واختيار هذا الاسم من أسماء جهنم هنا يوحي بأنها كما تُحطّم جسمه تحطّم كبريائه الذي كان يعلو به على الناس، فالعذاب هناك بدنيّ ونفسيّ» (الدهمة، 2010، صفحة ج2، ص213).

ومن أبلغ وأجمل ما أظهره الشيخ من بديع حسن الاختيار، وما يترتب عليه من دقة التعبير وروعته وتصويره الفني، ما ذكره في سرّ انتقاء الفعل "تر" في قول المولى عزّ وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل:1]، فبعد أن بيّن أنّ للرؤية دلالتين: دلالة حقيقية هي الرؤية البصرية، ودلالة مجازية هي الرؤية القلبية المرادفة للعلم، انتقل إلى بيان الرؤية التي في السورة، فشرح معناها الظاهر ثم عرّج على المعنى الخفي وراء هذا الانتقاء، قائلاً: «والرؤية في هذه السورة قلبية قطعاً، لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يرَ بعينه ما وقع

لأصحاب الفيل، ضرورة أنه لم يولد إلا في هذا العام أي عام الفيل، ولكنه علم القصة بعد أن عقل بواسطة الأخبار المتواترة التي كان كبار مكة يروونها للأجيال. والأخبار المتواترة تفيد العلم القطعي، والعلم القطعي بالشئ لا يقل عن الإدراك بحاسة البصر، وإفادة هذا المعنى اختيار التعبير بـ "تَرَ" بدل "تَعْلَمَ"؛ لأنَّ الصورة الذهنية التي تكونت للنبي صلى الله عليه وسلم عن الحادث جعلته يشعر كأنه كان حاضرا يرى بعينه ما كان يحدث» (الدهمة، 2010، صفحة ج2، ص224).

ومن دقة التعبير القرآني، انضباطه التام في وضع كل لفظ في موضعه، انضباطا تاما لم يشد عنه لفظ على امتداد التركيب اللغوي للقرآن الكريم؛ نجد آية ذلك -مثلا- في وضعه لثلاثة ألفاظ متباينة الموضع الذي يوائمها، وهي "علم" و"عين" و"حق"، وقد استعملت مضافة إلى اللفظ نفسه في ثلاثة مواضع؛ حيث دل كل منها دلالة دقيقة منضبطة من غير نقصان أو تداخل بينها مُخلٌ بتفاوت درجاتها في الشعور، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:5]، وقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:7]، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة:95]، ويوضح الدهمة الفرق الدلالي بين هذه الألفاظ، ذلك الفرق الدلالي الذي أوضعها ضمن سياقها مقتضي لها، فيقول: «ومما يلاحظه متتبع القرآن الكريم أنَّ ألفاظا فيه أضيفت إلى لفظ "اليقين" هي "علم" و"عين" و"حق"، والفرق بينها أنَّ علم اليقين هو إدراك الشئ بالعقل دون مشاهدة، وأنَّ عين اليقين هو إدراك الشئ بالمعينة، وأنَّ حق اليقين هو إدراك الشئ بالمازجة والملازمة؛ كالموت يحس الإنسان سريانه في جسمه، أو كوجوده في مكان ما، وهو أبلغ من الثاني في الإحساس، فجاءت كل لفظة في مقامها المناسب» (الدهمة، 2010، الصفحات ج2، ص185-186).

ومن الاختيارات القرآنية التي استوقفت الشيخ الدهمة، اختيار التعبير بضمير الجمع بدل الأفراد في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5]، وكعاداته، يثير في نفس القارئ الإلحاح على معرفة الحكمة المعنوية الربانية وراء هذا الانتقاء عن طريق التساؤل، ليقدم جوابا مُقنعا مُشبعاً رغبة المستنار، يقول: «وما الحكمة في استعمال ضمير الجماعة في "نعبد" و"نستعين" مع أنَّ العابد والمستعين قد يكون واحدا؟

هي الإشعار بوحدة الموحدين، ولتكون عبادة الواحد مدرجة في عبادة الآخرين عسى أن تُقبل، ولترغب في الانضمام إلى الجماعة» (الدهمة، 2010، صفحة ج1، ص37). دلالة تتجاوز ظاهر معنى اللفظ المحدود إلى معناه الخفي الموسع، وتنتقل من لغة الخطاب الشرعي إلى حكمة المُشرع.

ثانيا - علاقة السياق الدلالي بالعدول عن لفظ إلى آخر؛ وهذا من سمات النص القرآني، أن يعدل عن لفظ يصلح لذلك الموضع إلى لفظ آخر لتحقيق معنى خاص ليس متحققا في اللفظ الأول؛ وذلك المعنى الخاص

يحيط به السياق العام للآيات ويطلبه، ومن أمثلة ذلك اختيار اسم "الرحمن" في قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ ردًا على سؤال السائلين ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس:52]، وبعد أن بيّن الشيخ الدهمة أنّ المجيب عن السؤال بـ "هذا ما وعد الرحمن" يحتمل أوجهًا: فقد يكون المولى عزّ وجلّ أو ملائكته الكرام، أو المؤمنين، وقد يكون المجيب المشركين أنفسهم حين يعودون إلى رشدهم، طرح تساؤلًا مهما يحمل في طياته قضية دلالية مهمة تتصل بآيات سابقة، ثم أجاب عنه قائلا: «ولمَّ عدل عن اسم الجلالة "الله" إلى اسم "الرحمن" في قولهم: "هذا ما وعد الرحمن"؟»

إذا كان الجواب من الله عزّ وجلّ أو الملائكة أو المؤمنين، ففحواه توبيخ الكفار على إنكارهم اسما من أسماء الله الحسنى وهو "الرحمن"، وعدم الاعتراف به حين كانوا في الدنيا وندمهم على ذلك» (الدهمة، 2010، صفحة ج1، ص147)، وإذا نظرنا في الآيات السابقة، نجدها تتضمن تذكيرا من المولى عزّ وجلّ بآياته الكونية وإنعامه على عباده، وتذكيرا برحمته في قوله: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ [يس:43-44]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس:45].

وقد أجاد الشيخ الدهمة الربط بين ما تضمنته تلك الآيات من تذكير برحمة الله، وبين انتقاء اسم "الرحمن" عوض اسم الجلالة "الله"، فكان السرّ الدلالي الخفي لهذا الانتقاء الذي اتّسع لسياق دلالي تجاوز حدود النسيج اللغوي للآية الواحدة، فتشبع اسم الرحمن بدلالة التوبيخ على ما فرطوا من رحمة الله، وعدم تصديقهم لها، وعبر الشيخ بلفظ العدول وإنما هو اختيار مقصود، وليس العدول الذي هو انحراف عن العرف اللغوي، كالعدول في الصيغ الصرفية وأزمنة الأفعال.

وقد يحصل العدول عن حرف إلى حرف آخر، يشتركان في المعنى العام ويفترقان في خصوصية دلالية، ووفق تلك الخصوصية ينتظم مكانهما في التركيب، ومثال ذلك قوله جلّ جلاله: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد:3]، والآية تتمّة لما قبلها في قوله: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ما أغنى عنه ماله وما كسب، وقد استخلص الشيخ الدهمة من دخول السين على الفعل "يصلّى" عدولا يشير إلى إحياء دلالي عميق، لا يكاد يتحقق من خلال التعبير بـ "سوف"، وإن كان الموضع موضع "سوف" على وجه الحقيقة، إلا أنّ ورودها بالسين تضمّن بُعدا دلاليا فوقيا، يوضح الشيخ هذا العدول الاختياري، فيقول: «والسين الداخلة على المضارع تفيد التنفيس، أي توسيع الوقت من الحال إلى المستقبل القريب، وبما أنّ هذه النار التي تُوعّد بها أبو لهب تقع في المستقبل البعيد في عرفنا، كان الموضع يقتضي "سوف" التي تُمحض المضارع للدلالة على المستقبل البعيد، ولكن عدل عنها إلى

"السين" من باب "كل ما هو آت قريب"، وعلى حدّ قوله تعالى في سورة المعارج: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: 6-7] (الدهمة، 2010، صفحة ج2، ص302).

ثالثاً - علاقة اختيار المفردة بوزنها الصرفي، وإثثار وزن دون آخر، ومن ذلك اختيار الفعل "تُعَلِّمون" بدل "تُعَلِّمون"، في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجرات: 16]، وقد وقف الشيخ عند هذا الانتقاء المقصود بعد التفريق بين الصيغتين ليستخلص المعنى الخفي المرتبط بقوة الصيغة المختارة، قائلا: «(التعليم) الإعلام والإخبار بالشيء. ولكن الفرق بين صيغتي "التفعيل" و"الإفعال" أنّ الأولى تدل على حصول الشيء بقوة كالتكسير والتنويم مثلاً، وليس كذلك صيغة "الإفعال"، فقولنا "علّمه تعليماً" أبلغ من قولنا "أعلمه إعلاماً"، وهؤلاء الأعراب كانوا يلحون على النبي صلى الله عليه وسلم في إخباره بأنهم آمنوا، ويجهتدون في نفي الشك من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك أُوثر التعبير بـ "تُعَلِّمون" على التعبير بـ "تُعَلِّمون"» (الدهمة، 2010، الصفحات ج1، ص312-313).

أجاد الشيخ الدهمة الربط بين إصرار الأعراب على النبي -صلى الله عليه وسلم- ليخبرهم عن إيمانهم، ومداومتهم ودأبهم على أن ينفوا الشك عنه، وبين قوة الدلالة المتضمنة في لفظ "تُعَلِّمون"، فكأنهم من خلال إصرارهم على إخباره صلى الله عليه وسلم بإيمانهم أرادوا أن يحصل عنده العلم بذلك بقوة الإصرار والإلحاح، وهذا المعنى الأليق به صيغة التفعيل لا الإفعال، لذا جاء التعبير القرآني منتقياً الصيغة الأوفق انتقاءً دقيقاً.

وممّا أورده الشيخ في هذا الباب قوله إنّ اختيار صيغة المصدر "تنزيل" في قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس: 5] إنّما هو «للتعبير عن الوحي المنزل على سبيل المبالغة» (الدهمة، 2010، صفحة ج1، ص65) فقد استعاض المولى عز وجل عن التعبير بالإنزال إلى التعبير بالتنزيل لما في ذلك من معنى المبالغة.

خامساً - علاقة الدلالة بانتقاء فعل عدل عن زمنه الحقيقي، والعدول «خروج عن النمط العادي أو المؤلف إلى النمط الفني أو المتميّز من الكلام» (هنداوي، 1429هـ/2008م، صفحة ص143)، وهذا الخروج عن النمط اللغوي الأصلي هو انزياح عن زمن البنية الصرفية إلى زمن السياق لحاجة مقصدية في نفس المتكلم، لا يمكن تحقيقها مع التعبير العادي، لذلك يُعدّ العدول من أساليب السموّ التعبيري والعلويّ الدلالي، وقد استرعى هذا الأسلوب الفني البديع اهتمام الشيخ الدهمة، فكان ينصّ عليه ولا يُغفل التنبيه عليه لما يتضمنه من قيمة دلالية مرفّعة.

ومن نماذج العدول التعبير عن المضارع بالماضي في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: 10]، وعمد الشيخ إلى طرح تساؤل على طريقته التي يبتغي

بها استنارة ذهن القارئ لمعرفة قيمة وأهمية الجواب، يقول: «وقد يتساءل البعض فيقول: إنَّ التابعين لم يكونوا حاضرين في المدينة المنورة حين نزول الآية التي تعنيهم، فكيف صحَّ التعبير عنهم بصيغة الماضي "جاءوا" عوض "يجيئون" بصيغة المضارع الدال على المستقبل؟

والجواب أنَّهم كانوا -وما زالوا- حاضرين في علم الله الذي لا يتقيَّد بزمان ولا مكان، فالماضي والحاضر والمستقبل سواء بالنسبة لعلم الله عزَّ وجلَّ، بخلاف علم البشر المحدود بالزمان والمكان» (الدهمة، 2010، صفحة ج1، ص385).

إنَّ تفسير الشيخ الدهمة لهذا العدول الزمني منطلقه إيماني عقديّ بحث؛ فالأزمنة عندنا نحن البشر متفرقة ومتفاوتة من حيث علمنا بها، بخلافها عند المولى عزَّ وجلَّ، فعلمه شمل ما كان وما هو كائن وما سيكون، كلُّ عنده سواء، وما لم يقع بعدُ في علمنا واقع في علم العليم الخبير، ولهذا كان اختيار التعبير بصيغة الماضي أبلغ في الدلالة من التعبير بصيغة المضارع، فهو تأكيد من المولى على حتمية وقوع ما أخبر عنه. ومن جميل مواضع العدول في القرآن الكريم انتقاء التعبير بالماضي بدل المستقبل في خطاب المولى لنبيه صلى الله عليه وسلم، حين قال له: ﴿إِنَّا أُعْطِينَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1] عوض "سنعطيك"؛ وذلك أنَّ المولى جلَّ وعلا لم يكن قد أعطاه الكوثر حين نزول الآية، وجوابه عند الشيخ من وجهين: «1. أنَّ الله -سبحانه- أخبر بما قدره في علمه الأزلي لخاتم أنبيائه من الخير الذي سيحظى به.

2. أنَّ الله سبحانه وعد نبيه بهذا الكوثر، ووعد الله لا بدَّ من وقوعه وإن طال الزمن، فكأنَّه حصل بالفعل» (الدهمة، 2010، صفحة ج2، ص258).

ومن ذلك الانحراف الزمني في قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: 2]، حيث عبَّر المولى عزَّ وجلَّ بالفعل "أغنى" الدال على المضى، وإن كان سياق الحديث عن القيامة وهي من حوادث المستقبل، وقد فسر الشيخ ذلك بقوله: «والتعبير في الآية بصيغة الماضي "أغنى" لإفادة التحقيق؛ فكأنَّ القيامة قامت فعلا، وحاول أبو لهب الفداء ولم يقبل منه» (الدهمة، 2010، صفحة ج2، ص301).

ولنتوقف عند إيثار التعبير بالفعل الماضي في قول المولى عزَّ وجلَّ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: 3]، فكان ظاهر السياق يقتضي أن يقول "يُخْلِدُهُ"، ولكنَّه استعاض عن المضارع بالماضي، واستخلص الدهمة لطيفة دلالية مستوحاة من هذا الاختيار البديع في الخروج عن المألوف، فقال: «والأصل في استعمال مادة "أخلد" أن يؤتى بها في صيغة المضارع، لأنَّ الإخلاق إنما يقع في المستقبل وهو ما يفيد المضارع، ولكن أثر استعمال الماضي ليفيد أنَّ جامع المال كأنَّه تيقن أنه خالد، وهكذا كلُّ من أعمى الله بصيرته بكثرة المال وانعدام العقيدة الصحيحة

يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَمْلِكَ كُلَّ شَيْءٍ بِمَالِهِ حَتَّى الْخُلُودِ فِي الدُّنْيَا» (الدهمة، 2010، الصفحات ج2، ص211-212).

وقد تَقَرَّرَ في عُرْفِ البلاغيين أَنَّ التعبيرَ بالماضي عن الزمن المستقبل «الغرضُ منه الدلالة على إيجاب الفعل الذي لم يوجد» (الأثير، 1939، صفحة ج2، ص18)، والقرآن الكريم زاحِرٌ بهذا اللون من الخروج عن الزمن الأصلي الذي تقتضيه الدلالة الظاهرة، إلى الزمن السياقي الذي تقتضيه الدلالة الخفية، فالمولى لا يقصد الإخبار بحسب، بل يقصد الإخبار مشحوناً بمعانٍ تليق بعلمه الواسع اللامتناهي.

4. خاتمة:

نخلص في ختام هذه الورقة البحثية إلى جملة من النتائج، نجملها فيما يلي:

- للمفردة القرآنية خصوصية منقرّدة، لما تتصف به من مزايا لا وجود لها في أرقى النصوص العربية فصاحة وبلاغة، فهي مثل شجرة كثيرة الأغصان المتصلة بجذورها، متشعبةً بالدلالات التي إن وسّعنا اقتناص بعضها انسلَّ بعضها الآخر من بين يدينا، فإن كانت ألفاظ الفصحاء والبلغاء نتيجة قدرات لغوية هائلة، وتمثّل للمعاني في أبهى ألوانها، فإنّ المفردة القرآنية تجسيد لبناء دلالي متكامل، تتداخل فيه اللغة والبلاغة والدين بما يحمله من المعاني الإلهية، إنّها مثل الشمس والقمر كما وصفهما المولى عزَّ وجلَّ: «وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ» [يس:5]؛ كلُّ لفظٍ وُضِعَ موضعه وضُعا محسوباً ومننظماً بدقة، لا يقبل التعديل.

- يتميز تفسير الشيخ محمد الأخضر الدهمة بأسلوب لغوي يجمع بين السلاسة والوضوح، لأنّه وجّهه للمتعلمين على وجه الخصوص، فنأى بذلك عن الأسلوب المعقّد والمربك، لكنّ غايته التعليمية لم تمنعه من أن يضمّن تفسيره العديد من المعارف النحوية والصرفية والبلاغية.

- وقد اعتنى من أول تفسيره إلى آخره بتتبع المعاني اللغوية للألفاظ القرآنية، معتمداً على التفسير بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وكلام العرب شعراً ونثراً، متجنّباً الخوض في الخلافات، مكتفياً بالدلالات المتفق عليها بين المفسرين.

- وسعى الشيخ لخضر الدهمة، كلما استوقفه لفظ ذو خصوصية، أن يستوفيه حقّه، بأنّ يبيّن الأسرار الدلالية المستقاة؛ إمّا من بنيته، أو من سياقه اللغوي، أو الديني، فنجد تارة يستطلق البنية الصرفية للفظ وظلالها الدلالية، وتارة يُعْمِنُ النظر في السياق الذي حيّك اللفظ داخله، ونجد تارة أخرى يغوص فيما هو أبعد من المعنى

الظاهر، وأعمق غوراً، فنراه يُظهر للقارئ أنَّ إمكانية استبدال اللفظ بغيره تسلبه القيمة التعبيرية التي اصطفاها المولى لأجلها، كلُّ ذلك بأسلوب واضح خالٍ من التعقيد.

5. قائمة المراجع:

1. أبو إسحاق الشاطبي. (2004). الموافقات في أصول الشريعة. بيروت: دار الكتب العلمية .
2. أحمد حسن الزيات. (1945). دفاع عن البلاغة . القاهرة: مطبعة الرسالة.
3. الراغب الأصفهاني. (1430هـ/2009م). مفردات ألفاظ القرآن. دمشق: دار القلم .
4. خالد عبد الرحمن العك. (1406هـ/1986م). أصول التفسير وقواعده. دمشق: دار النفائس.
5. ضياء الدين بن الأثير. (1939). المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. مصر: مطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده.
6. عبد الحميد أحمد يوسف هندراوي. (1429هـ/2008م). الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم دراسة نظرية تطبيقية التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة. بيروت : المكتبة العصرية.
7. محمد الأخضر الدهمة. (2010). قطوف دانية من سور قرآنية. غرداية- الجزائر: مطبعة مداد.
8. مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار. (1422). التفسير اللغوي للقرآن الكريم. الرياض: دار ابن الجوزي.